عن " تأهيل " اللغة العربية[*]

د. موسى الشامي[**]

هناك مجموعة من الأسئلة أود الوقوف عندها، لمقاربة إشكالية ما يقصد ب"تأهيل" اللغة العربية. وأنا في هذا العرض لا أريد أن أتعرّض لمسالة الأمن اللغويّ بالمغرب، لأن ذلك سيقودني إلى النبش في ملف شائك هو التعدّد اللغويّ ودور اللّغات الوطنية داخل هذا التعدّد. وما يهمني هنا، هو هذه اللغة التي أجدني منخرطًا في الدفاع عنها في إطار الجمعية المغربية لحماية اللغة العربية.

1- ما القصد بمفهوم "التأهيل" ؟

ما القصد بالضبط عند الكلام عن"تأهيل" اللغة العربية؟

العبارة غامضة وتحتاج إلى تفسير أو إلى توضيح أو إلى تأويل.

"تأهيل" اللغة العربية يعني أن شيئًا ما ينقصها، وهذا الشيء هو الذي يُعرّقل تأديتها لمهامها. وهي- حسب هذا التعبير- مشلولة، لا تقوى الآن، في ذهن من يستعمل عبارة "تأهيل"، على القيام بما يمكن أن تقوم به. فاللّغة

(*) قُدِّمت هذه الورقة في احتفال اللجنة الوطنية المغربية للتربية والثقافة والعلوم بيوم اللغة العربية.

(**) رئيس الجمعية المغربية لحماية اللغة العربية.

العربية، إذا أهلّت ؛ أي إذا تغير شيء فيها، أو إذا غيّر أصحابها شيئا فيها، أو إذا هم غيّروا بعض مواقفهم منها، يمكن أن تصبح لغة ذات حيوية، لغة "مؤهلة".

كما أن العبارة يُمكن أن توحي أن اللّغة العربية لم تكن لها أية "أهلية" (قدرة، كفاءة، قوة...)، فوجب الاستدراك، ووجب العمل على أن تكون لغة قادرة على مواكبة التطوّر الحديث، خصوصًا وأن هناك دولا عديدة رسمتها في دساتيرها. وهنا وجب التساؤل : "لماذا هذا الترسيم"؟ فالدول عادة لا ترسم إلا اللغات التي تعتقد أنها قادرة على البناء والتنمية. فهل هذا الاعتقاد سليم؟

لتبيان إشكالية عبارة "التأهيل"، من الضروري الر جوع إلى اللّغة العربية كبنيان وككيان، أو كنظام قائم بذاته، وكذا إلى المحيط أو المناخ، المادي والبشري، الذي تعيش فيه هذه اللّغة

2- لماذا نتحدث عن " تأهيل" اللّغة العربية؟

نتحدث عن "تأهيل" اللّغة العربية لأننا، على بينة من ضعفنا وتأخرنا مقارنة مع أمم أخرى سبقتنا في التقدم بلغاتها، ونعتقد جازمين (وخاطئين بطبيعة الحال) أن اللّغة العربية هي سبب هذا الضعف، ونتهمها بذلك، وفي الوقت نفسه، نهفو إلى أن نقود صراع التنمية ومعركة التطوّر والنماء بهذه اللّغة، دون غيرها، لأننا نؤمن أننا نحن هم اللّغة العربية واللغة العربية هي نحن. وكذلك، لأننا نشعر في قرارة أنفسنا أن اللّغة العربية قادرة على أن تخرجنا من أنفاق وظلمات التأخر وأن تقودنا إلى شواطئ التقدم والنجاح والرخاء، كما حدث ذلك، وبها، من قبل.

لكن، هل فعلا، وعلى أرض الواقع، اللّغة العربية قادرة على أن تقودنا اليوم إلى ما نصبوا إليه من رقي وتقدّم؟ وإذا لم تكن" مؤهلة "، كيف نؤهلها، لكي تصبح كذلك؟

لنقف مهلة عند الواقع الحالي للّغة العربية . ما هي حالتها اليوم؟

3 – الواقع الحالي للّغة العربية اليوم، ماذا يقول؟

لن أعود إلى الماضي، حتى لا يُقال لي: "ليس الفتى من يقول كان أبي..."، لكنني أريد أن أقول في البداية، وهو ما يقول به كم هائل من الباحثين الغربيين النزهاء، والفضل ما شهد به الأجنبي، أن حضارة الغرب لم تكن لتكون ما هي عليه اليوم، لولا الإرث الذي أخذته من الحضارة الإسلامية التي سادت العالم، (وسادت هذه الحضارة العالم بفضل اللغة العربية)، منذ ظهور الإسلام إلى سقوط غرناطة. بمعنى آخر أن اللغة العربية، كانت في وقت ما من التاريخ، لغة "مؤهلة " لمسايرة العلم آنذاك.

الواقع الحالي للّغة العربية يقول: "إن اللغة العربية، بعد أن كانت اللغة الأولى في العالم فيما أسماه الغرب اعتباطًا "القرون الوسطى" ويعني بذلك "القرون المظلمة"، وبعد دخول العالم العربيّ والإسلاميّ في سبات طويل وغيبوبة عميقة، وهذا هو حال الحضارات الكبرى،استرجعت أنفاسها، في أوائل القرن العشرين، عصر النهضة. وبعد فترة نقاهة، تجد نفسها اليوم تعاني من بعض بقايا هذه الغيبوبة الطويلة، وهو أمر عادي، كما عند أي كائن يتعافى، وربما كانت هذه المعاناة أمرا صحيًا، لأنه يُساير طبيعة الأشياء. وأريد أن أُذكّر هنا بسرعة أنه عند سقوط غرناطة في أواخر القرن الخامس عشر، لم يكن العالم، في ذلك الوقت، يعرف لغة اسمها "اللغة الفرنسية"، اللغة التي يحاول البعض اليوم إحلالها محلّ اللّغة العربية في شمال إفريقيا، فهذه اللّغة لم يستقم عودها إلا في أوائل القرن السابع عشر الميلادي، وهي اليوم، رغم ما تعانيه من مشاكل سواء في إملائها المعقّد أو نَحْوها المتشعّب، تعد لغة عالمية من بين اللّغات الأوائل علميًا. ومن الملاحظ أن اللّغة التي سادت العالم بعد سيادة اللّغة العربية وأفولها، كانت هي اللاتينية، وقد ازدهرت اللاتينية لمدة من الزمن، ثم اندثرت، ولم تندثر اللّغة العربية، الشيء الذي وجب التأمل فيه.

وكنظام لسني، فإن للّغة العربية خصائصها كجميع اللغات. وما تعرفه من "مشاكل"، هو من قبيل ما يمكن نعتها ب "المشاكل الخارجة عنها"؛ أي أن مشاكلها غير متعلقة بها كلغة ولا علاقة للّغة بها. وقبل أن أتعرض لهذه المشاكل الخارجة عن اللغة العربية باقتضاب شديد، لا بد لي أن أقف لحظة عند بعض الانتقادات التي تُوجّه إلى اللغة العربية والتي تجعل منها لغة غير "مؤهلة" عند من يوجّهون لها هذه الانتقادات المجانية غير العلمية .

* اللغة العربية غير "مؤهلة" لأنها صعبة. هكذا تبدو عند من تعودوا على الأبجدية اللاتينية، فهي لا تعرف الشكل؛ أي الحركات؛ أي أنها لغة صوامتية، وحروف الكلمات فيها تتغير حسب موقعها في أول أو وسط أو آخر الكلمة، ولها أصوات، (فونيمات)، متشابهة "يصعب" التمييز بينها (ذ،ض، ؟، ز...) وأصوات أخرى لا توجد ببعض اللّغات الأوروبية (ع، خ، ح، ص، ث...) وليس فيها أصوات توجد في اللّغات الأخرى وتعرف المثنى وهو غير موجود في اللغات الأخرى، وتتوفر على أشكال فعلية خاصة بالإناث، واللّغة العربية يجب أن تُفهم قبل أن تُقرأ، وغير هذا من الأساطير المحبوكة من قبل الخصوم لتحقيرها.... والواقع أن هذه الانتقادات هي فقط تبريرات يلجأ إليها من لا يريد بذل أي مجهود لتعلّم اللغة العربية، فهذه هي خصائص اللغة العربية. ولكل لغة خصائصها التي تميزها، وفي هذا يقول علماء اللغة أن ليس هناك لغات أحسن من الأخرى، بل ما هنالك هو لغات مُهيمنة ولغات مُهيمَن عليها. وللمقارنة، لنتمعن كيف يكتب، على سبيل المثال، في اللغة الفرنسية، حرف "الفاء" أو صوت" أو "؟ ولماذا حرف "إكس" يتغير نطقه حسب المفردات التي يُوجد بها والسياق الذي يُستعمل فيها ؟

تأمّلوا معي "السلوك الهذياني" لحرف "إكس" باللغة الفرنسية على سبيل المثال :

Fixe , x = x

Six élèves , x=z

Il y a six cahiers sur le bureau , x= 0 , الحرف هنا لا ينطق

Examen , x= gz

كيف يمكن لمتعلِّم اللّغة الفرنسية، من أية جنسية كانت، أن يتعامل مع هذا السلوك الغريب في الكتابة؟..و سأعود لهذا الموضوع في مقال لاحق لأبين أن اللغة العربية الفصيحة في تعلمها أسهل من اللغة الفرنسية، حتى وإن كان اللسانيون يجزمون أن ليس هناك لغات سهلة ولغات صعبة ... هذا رأي المنظّرين، ولكن للعاملين في الميدان الديداكتيكي رأيًا آخر مخالفا لرأيهم ...

ولنتأمل كيف نكتب جملة بالحرف اللاتيني بخط اليد وبالطباعة، ولنقارن هذا بكيفية الكتابة خطيًا وطباعة باللغة العربية .. ولنقف عند الحروف التاجية في الأبجدية اللاتينية، ونوعية المشاكل التي تخلقها للمتعلم عندما يقارنها بالحروف العادية الصغيرة. هذه الأمثلة البسيطة أسوقها للتأكيد على أن اللغة العربية ليست معقدة كما هو حال اللغة الفرنسية كما يذهب إلى ذلك خصوم اللغة العربية من الفرانكوفونيين ...

* اللغة العربية غير "مؤهلة" لعدم توفرها على المصطلحات الازمة لولوج عالم المعرفة. وهذا مشكل مصطنع وطرحه بهذه الكيفية غير علمي، لأن أية لغة يمكن لها أن تُنشِئ آلاف المصطلحات التي تحتاج إليها . (الإنسان هو الذي ينتج المفردات ويقوي اللغة)، وهو أمر موكول للعلماء المتخصصين في الميادين العلمية التي يهتمون بها. والرجل العادي ليس في حاجة إلى الإلمام بالمصطلحات العلمية التي تظل من اختصاص العلماء، كلّ في ميدانه. المشكل في المصطلحات بالنسبة للّغة العربية ليس في إنشائها، بل في تداولها وتبنيها والعمل بها، لأن الدول التي تستعمل اللّغة العربية تصل إلى 22 دولة وتجد صعوبة في الاتفاق فيما بينها على المصطلح الملائم في مساحة جغرافية شاسعة جدًا. وهو أمر

طبيعي، وليس بمشكل كبير. وعلى أي، وإن تعددت المصطلحات للتعبير عن مدلول واحد، فالاستعمال الشائع هو الذي يحيا مع الوقت والاستعمال، والبقاء يظل دائما للأصلح.

* اللغة العربية غير "مؤهلة" لأنها غير متداولة شفهيا؛ أي أن أهلها لا يتكلمون بها في حياتهم اليومية، وهي لغة المثقفين،تستعمل شفهيًا في بعض المواقف فقط (محاضرات، أخبار في وسائل الإعلام، خطب...)، وبهذا المعنى، فهي لغة كتابة أكثر منها لغة تداول شفهي. هي لغة المثقفين؟، وماذا يمنع أن يكون جميع الناس مثقفين؟ أو ليست الأمية هي المسؤولة هنا؟ هذا ليس مشكل اللغة العربية لأن التواصل بها ممكن، وهو أمر قائم بين من نال حظا من الثقافة العربية ، وهو أمر لا يريد الاعتراف به الحاقدون الدجالون . على أن الثنائية "لغة كتابة"، "لغة خطابة وتداول" موجودة في كل اللغات؛ أي أن اللغة المستعملة في الكتابة هي عادة لغة عالمة، واللغة المستعملة في التخاطب هي لغة متراخية، منحلة. اللّغة الفرنسية مثلا تعرف هذه الثنائية، فاللّغة التي يكتب بها الفرنسيون هي لغة منقحة، محكمة، مخالفة للغة رجل الشارع، التي تظل مهلهلة، تستعمل عبارات وتراكيب لا تقبلها اللغة العالمة، وهي دارجة كجميع الدوارج لدرجة أن غير الفرنسيين لا يفهمونها في كثير من الأحيان لأنهم لم يتعلموها في المدرسة.

إذا كانت اللغة العربية غير مسؤولة عن هذه العيوب التي تنعت بها، فأين، إذا، تكمن عوائقها والتي تجعلنا نتكلم عن" تأهيلها"؟

4- ما هي المشاكل التي تُعرّقل تقدّم اللّغة العربية وتجعل البعض منا يتحدث عن ضرورة" تأهيلها"؟

هناك عوائق شتى لا علاقة لها ببنية اللغة العربية، بل هي عوائق خارجة عنها، منها على سبيل المثال :

* **الأمية** : تعدّد الدول العربية كان من شأنه أن يدفع في اتجاه تنمية اللغة العربية نظرا لتوفر هذه البلاد على ساكنة مهمة كان بالإمكان أن تمثل مشتلا

خصبا لتناسل وتكاثر المتخصصين فيها، لكن الأمية الضاربة أطنابها في هذه الدول جعل منها عائقًا أمام الإنتاج العلميّ والمعرفيّ باللّغة العربية، فاللّغة العربية لا تستفيد من سكانها، إذ إن نسبة كبيرة تسبح في ظلمات الأمية. كيف للغة ما أن تتقدم إذا سادت الأمية عند أبنائها؟ وكيف للّغة العربية أن تُنتج المعرفة عندما يفضل العلماء في العالم العربي اللغات الأجنبية، وهذا التفضيل هو نوع آخر من الأمية تعاني منه اللغة العربية ...

* **الاتكالية في الحقل العلمي** : تعدّد الدول التي تستعمل اللّغة العربية كلغة رسمية ينتج عنه أن كل دولة تتكل على الدول الأخرى للأخذ بيد اللغة العربية في ميدان المصطلحات بالخصوص. ولو أن اللغة العربية كانت خاصّة بدولة واحدة لكانت الأمور قد أخذت مجرى آخر، كما هو الحال مثلا في دولة كإسرائيل. فهذه الدولة تعتبر نفسها المسؤولة الوحيدة عن لغتها. فهي التي تقرر، ثم تنجز. وأما الدول العربية، فهي ليست سيدة قراراتها في اللغة، إذ، عندما نقرر شيئا في المغرب (مثلا، نحت مصطلحات)، علينا أن نستشير الدول التي تتقاسم معنا اللغة الرسمية، وهذا يخلق متاعب شتى، وهي متاعب نابعة من شساعة جغرافيا العالم العربيّ التي تُعرّقل التنسيق، زيادة على الخصومات السياسية التي تفرق بين الدول العربية.

* **النفوذ اللغويّ الأجنبيّ**: هناك دور سلبي كبير تلعبه البلاد الاستعمارية القديمة التي هيمنت على الدول العربية والتي تشتاق إلى العودة بلغاتها إليها، وتعمل جاهدة وبكل الوسائل من أجل ذلك، وترى في اللّغة العربية منافسة شرسة لها. وهذا هو حال اللغة الفرنسية بالمغرب، إذ أصبحت، بسبب هيمنتها على جميع المجالات الحيوية، هي اللغة الرسمية الفعلية للبلاد ولا يمكن اجتثاث هذا الورم السرطاني لا بأكاديمية للّغة العربية ولا بمجلس للّغات إذا لم تكن لهذه المؤسسات صلاحيات تقريرية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة. وأما اللّغة العربية، فهي لغة رسمية على الورق ونخشى أن يكون هذا هو مصير الأمازيغية

كذلك بمختلف فروعها. ولتصل فرنسا إلى هذا الأمر، فهي تستعمل كل ذكائها ونفوذها المالي لترسيخ لغتها في الواقع المغربي. وتكوّن في مدارسها نخبة مغربية فرانكفونية، لا تتقن سوى هذه اللغة وتمارس عملها الدعائي لنشر لغتها في معاهدها عبر المدن...

* **التيه السياسي لأصحاب الحل والعقد بالعالم العربيّ**: أغلب الساسة العرب في واد بعيد عن انشغالات شعوبهم، ووضعية اللغة العربية من الأمور الثانوية لديهم ويكفي في هذا المجال أن نستمع إلى "بلاغتهم" عندما يقرؤون خطبهم. الموارد المادية متوفرة ولا عمل جدي بخصوص اللّغة العربية على أرض الواقع. وهل فاقد الشيء يمكن أن يأتي به ويعطيه ؟.

5 – ماذا يجب علينا فعله إزاء هذه الوضعية لتصبح اللّغة العربية" مؤهلة" أي لتقوم بدورها على أحسن حال ؟

وجب التكرار من جديد أن اللغة العربية مؤهلة في حد ذاتها ولها طاقات وقدرات داخلية يعرفها علماء اللغة العربية، من اشتقاق ونحت وتعريب، وإمكانيات لغوية ضخمة لوضع المصطلحات... لكن مشكلتها الكبرى هي أنها تعيش في مناخ ثقافيّ غير صحي وغير مؤهّل، كما رأينا، وهو الذي يؤثر سلبًا فيها ويخلق جوا ينعدم فيه الإنتاج العلمي، وبالتالي الأمن اللغويّ. اللغة العربية لغة مؤهّلة في مناخ عام غير مؤهّل ...

– أول غول يجب التجنيد له لأنه يعتبر العدو اللدود للّغة العربية هو الإنسان العربي الأمي، حاكمًا كان أو محكومًا، وإذا علمنا أن نسبة الأمية في العالم العربيّ كبيرة جدا وهي غير مستساغة ومرفوضة، لما يتوفر عليه العالم العربيّ من موارد مادية، فهمنا أن العيب فينا وليس في اللغة العربية.

تأهيل الإنسان العربيّ، بنشر العلم والثقافة هو الحجر الأساس الذي به تصبح اللغة العربية "مؤهّلة". وهذا أمر يتطلب الوقت والصراع مع من لهم المصلحة في أن يظل الإنسان العربيّ غارقًا في يم الأمية والجهل. وما نشاهده

اليوم من غليان في العالم العربيّ يمكن اعتباره أيضًا رفضًا للجهل والأمية والمرتبة الدونية التي يشعر الإنسان العربيّ أنه حشر فيها حشرًا.

– وبطبيعة الحال، يظلّ تأهيل الإنسان من اختصاص الدولة، وفي غياب ذلك، فإن دور المجتمع المدنيّ والسياسيّ، ممثلا في جمعيات الدفاع عن اللغة العربية وجمعيات حقوق الإنسان اللّغوية والثقافية، والأحزاب والنقابات وغيرها من الهيئات، وبالتنسيق مع علماء الأمة وأعني بهم علماء اللسانيات بالدرجة الأولى، يصبح ضروريًا للضغط على أصحاب القرار. وبإمكان مفكري الأمة أن يضغطوا على من بيدهم زمام السّلطة، لخدمة اللّغة العربية والدّفع في إنتاج المعرفة بها. وإلا فلمَ يصلح فكرهم هذا وما جدواه؟ بدون هذا الضغط المشروع والذي يستخدم الحجة العلمية بالأساس لتبيان قدرة اللغة العربية على إنتاج المعرفة، ستظلّ هذه الأخيرة تنتظر من يأخذ بيدها.

ومع هذا كله، فإن الملاحظ أن حالة اللّغة العربية ليست من التدهور كما يصوره لنا بعض المتشائمين، بل هي لغة جاهزة، مؤهلة، وفي حالة جيدة إذا ما قورنت بالحالة التي كانت عليها في بداية العقد الخامس من القرن الماضي. نحن الآن نعيش مرحلة انتقالية وحالتنا هي أحسن مما كانت عليه سابقًا، لكن العمل ما زال طويلا ويتطلب جهودًا كثيرة ونفسًا طويلا ومثابرة وأناة...وليس هذا بعزيز على المتمسكين باللّغة العربية الفصيحة...